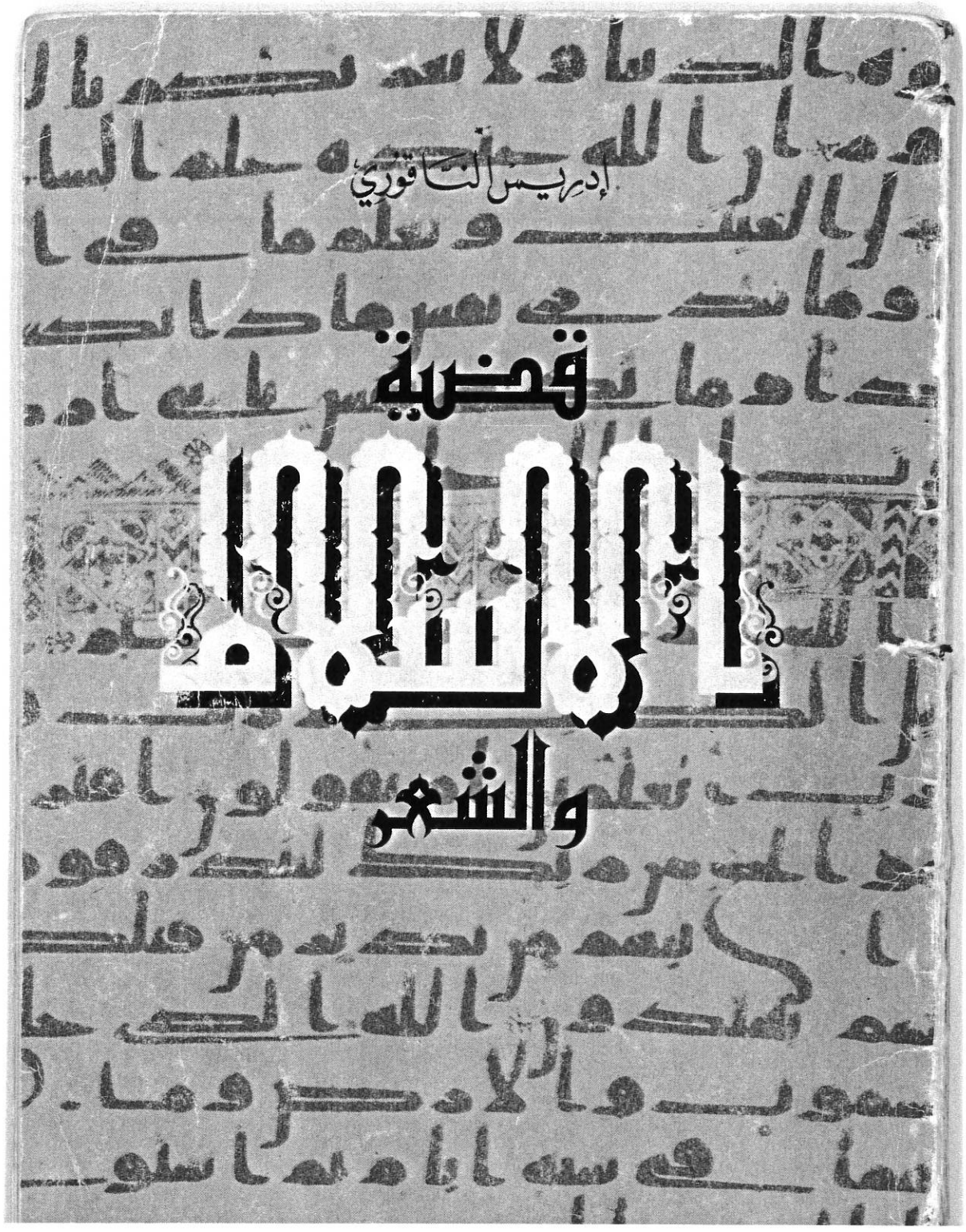
إدريس الناقوري
قضية
الشعر
والشعر

فيها النظر جزئياً وأدخلت عليها تعديلات وإضافات طفيفة، وحرصت، فيما عدا ذلك، على أن تساير مستوى الطلبة، وعلى أن تكون في متناول فهمهم وتصورهم.

ومن كل ماسبق، تتبين حقيقة أخرى، وهي أن هذا البحث لا يتوجه إلى الصفوة المتخصصة في الأدب القديم والدراسات الإسلامية المعمقة ، ولكنه يضع بين يدي طلاب الأدب، وجمهرة القراء، مادة توثق صلتهم بالنصوص وتطلعهم على حقيقة الموقف الذي اتخذه الإسلام ـ كتاباً، وحديثاً وسلوكاً ـ من الشعر والشعراء في فترة شجر فيها الخلاف بين المسلمين والمشركين، منذ بداية التبشير بالدعوة، إلى بداية الصراع الدموي من أجل الخلافة، وانقسم فيها الشعراء على أنفسهم، بين مناصر للدين ومناوئ له. فكان أن استمر الصراع بين الفريقين سنوات معدودات، حسم فيها المصير أخيرا، وتحددت نتيجة المعركة بإنتصار الإسلام والشعر المدافع عنه، واندحار الكفر والشعر الموالي له.

أقول حقيقة الموقف الذي وقفه الاسلام من الشعر والشعراء لاعتقادي أن البحث إن لم يكن موضوعياً كل الموضوعية في فحصه ومعالجته هذا الموقف، فقد حاول على أي حال أن يكون كذلك، إلا أنيثبت العكس ويقوم الدليل على خلاف هذا الاعتقاد الذي قد لايعدو أن يكون ـ في نهاية التحليل ـ محصلة عدة رؤى ورواسب تخيم عليها أحياناً ظلال الذاتية.

الاسلام والشعر: الموقف والنتيجة

ا ـ (الاسلام والشعر) حديث ذو تاريخ له رجع بعيد ، فهو من الموضوعات الأدبية القديمة التي كثر فيها الكلام وطال حولها الجدل حتى ليمكن القول انها تحولت الى قضية فكرية واشكالية معقدة شغلت الباحثين والمختصين في الدراسات الاسلامية والأدبية على السواء.

والواقع ان علاقة الاسلام بالشعر في صدر الاسلام استنفدت كثيرا من جهود الباحثين والدارسين قديما وحديثا ، ولانها قضية فكرية وأدبية في آن واحد وذات أبعاد متعددة، فهي لاتزال قابلة لان تطرح بصيغ مختلفة ومفاهيم متباينة تتعدد بتعدد المناهج المصطنعة في البحث ، وتختلف باختلاف الوسائل التي يعتمدها والغايات التي يسعى الى تحقيقها، ولنا أن نقول كذلك ـ دونمارغبة في التاريخ لهذه القضية ـ إن العلاقة بين عنصريها والمتمثلة على الخصوص في المواقف المتعددة المظاهر والبواعث التي وقفها الاسلام من الشعر والشعراء في العهد النبوي والراشدي ، ساهمت هي الأخرى في تعقيد المشكل واغراقه احيانا في اللبس ، فكان ذلك مدعاة لسوء الفهم والتأويل، حتى ان طائفة من الباحثين عرضت القضية بطريقة ملتوية بله منحرفة ، مستغلة بعض الآيات الكريمة التي تصدت للشعر والشعراء، وحملت عليهما حملتها الشهيرة الصريحة تأولها فريق من الباحثين على غير وجهها الصحيح ورتبوا عليهانتائج تثير الجدل والاعتراض ، حين زعموا أن الاسلام وقف موقفا معاديا من الشعر والشعراء، وأن الشعر أصابه من جراء ذلك وهن وانحسار في العهد المذكور.

ومما لاشك فيه كذلك ان التصور الذي يحمله كل باحث عن الاسلام والشعر ويعتمده في التحليل والتقييم قد يساعد على اختلاف الرؤية وتنوع طرق المعالجة ، لذلك فالقضية برغم قدمها وغزارة ما أريق فيها من حبر لاتزال قابلة للمعالجة من أكثر من منظور : فهي من وجهةعلاقةبين الدين والفن، ومنوجهة اخرى، علاقة بين نوعين من أنواع الفكر او الايديولوجيا ، ومن وجهة ثالثة علاقة بين رؤية فكرية : دينية وسياسية واجتماعية، عامة وشاملة للكون والحياة والناس، وبين نوع محدد من أنواع الابداع هو القول الشعري.

وهذا الاختلاف قد يؤدي الى تنوع طرائق العرض، فيمكن ان تختلف هي الاخرى باختلاف القناعاتالفكرية لدى الباحثين، ومن هنا فقد تتخذ الطريقة منحى تاريخيا ، أو مسلكا فنيا يتصل بالنقد الادبي، وقد تحشر في مباحث أخرى ذات علاقة بمشكلة الاعجاز والبلاغة وغيرهما...

حسب ما يكون الهدف من الدراسة ، هل هو ابراز دور الشعر في معركة الوجود التي خاضها المسلمون بزعامة وتوجيه الرسول (ص) او بيان تأثير الاسلام في الشعر ، إن سلبا أوايجابا، أم هو الرغبة في دراسة مرحلة تاريخية تتميز بخصائصها الفكرية والاجتماعية وتختلف تبعا لذلك عن مرحلة سابقة، فيلجأ حينذاك الى المقايسة والمقارنة...

ومن أجل فهم الموقف على وجهه الامثل ـ قدر المستطاع ـ لابد من عرض القضية في صورتها الحقيقية ووضعها في اطارها التاريخي والواقعي ، اعني اطار الصراع بين فعاليتين : عامة وخاصة اصطدمتا فيما بينهما بأكثر ما يكون من العنف والحدة في مرحلة تاريخية انتقالية حاسمة، كانت حدا فاصلا بين عصرين : الجاهلية، بكل ما تعنيه من وثنية وتشتت قبلي ونزاع اجتماعي وتحرر فكري، والاسلام بكل ما يعنيه من وحدانية الهية ووحدة اجتماعيةوالتزام بأهداف العقيدة وخضوع لمقاصد الشريعة. وهو كذلك، وعلى الاخص، صراع بين خطابين اساسيين كانا منذ تلك المرحلة الانتقالية الحاسمة (النصف الاول من القرن الاول للهجرة) دعامتي الثقافة العربية الاسلامية ، هما : الخطاب القرآني والخطاب الشعري.

ان ما تكتسيه الاشكالية من أهمية وما تصطبع به من حساسية يستوجب من الباحث معالجتها بنوع من الموضوعية والحيطة، تجنبا للانحراف وتلافيا للالتباس

والتشويه ، لذلك يتعين النظر الى القضية في اطارها التاريخي والحضاري العام وفهم العلاقة بين طرفيهافهماجدليا يأخذ في الاعتبار طبيعة الاسلام والشعر، وخصوصية المرحلة التي نشأت بظهور الدعوة الجديدة في المجتمع العربي الجاهلي، وذلك بالرجوع الى الاصول الحقيقية، مناط الحجة ومدار العمدة في كل تحليل وتقييم يتصلان بموضوع القضية ، وهي القصائد والابيات التي ناوأت الاسلام وهاجمت الرسول (ص) والمسلمين من جهة ، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومواقف وآراء الخلفاء والصحابة من جهة ثانية.

إن الموضوع قد يبدو معقدا ومحرجا من وجهة نظر ما ، ولكنه برغم الاشكالات التي يطرحها والصعوبات التي تعترض سبيل معالجته ، ليس « قضية لا أبا حس لها » ، على ان اعتباره « قضية » بالمفهوم المحدد الذي نقصده هنا يتطلب منا عرضهوتناوله بطريقة موضوعية وأمنية، لذلك، لابد ، قبل الادلاء فيه برأي قد يكون حكما في الموضوع ، أو بمثابة حكم ، من عرض الوقائع واستقراء النوازل واعتبار كل عناصر القضية.

وطالما انالأمر يتعلق بقضية فكرية طرفاها الاساسيان هما الاسلام والشعر فلا مناص من تحديد طبيعة الصراع وحصره في الزمان والمكان.

ولا مناص قبل ذلك ، من التعريف بطرفيه ، والاشارة الى أسباب وملابسات النزاع ، لهذا سيكون التحليل وفق المخطط التالي :

1 ـ الفعالية الشعرية في المرحلة الجاهلية:

2 ـ الاسلام ظهوره وأهميته

3 ـ العلاقة بين الاسلام والشعر : موقف الاسلام من الشعر والشعراء :

– موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء

– موقف الرسول (ص) من الشعر والشعراء

– موقف الخلفاء والصحابة من الشعر والشعراء

4 ـ نتائج هذا الموقف :

– نظرية ضعف الشعر

عرض آراء الآخذين بها

عرض آراء خصومها

5 ـ استنتاجات عامة :

ا ـ الفعالية الشعرية في العصر الجاهلي وأهميتها :

أصبح من القول المعاد التذكير بأهمية الشعر في الحقبة الجاهلية بعد ان قامت الحجة على حقيقة الدور الذي كان يضطلع به وضخامة المسؤولية التاريخية والاجتماعية التي تحملها اذ ذاك ، وبعد ان استنفد البحث في هذا الموضوع ـ أو كاد ـ بما ألف فيه من كتب تتعلق برواية الشعر وتاريخه (١) ونقده ، ويكفي الرجوع الى أمهات المصادر القديمة للتأكد من ان الشعر قام بالفعل بدور خطير في الحياة الجاهلية وكان احدى ضروراتها الاجتماعية التي ارتبطت بمجالاتها الاقتصادية والسياسية والدينية والحربية ـ ولا أدل على اهميته وقيمته في تلك البيئة القديمة من هذا التراث الضخم الذي خلفه ، ومن الأقوال والاخبار الكثيرة المنسوبة الى علماء ومؤرخين ورجال ذوي شأن. قال عمر بن الخطاب ـ وهو ذو علم وبصر بالشعر ـ : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه » (1) ، ولابن عباس قوله المشهور فيه : « الشعر ديوان العرب » (2) ،وهو نفس القول الذي أكده ابن سلام في طبقاته :« وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون، وإليه يصيرون » (3)

ويتحدث ابن قتيبة (4) وغيره كثيرون عن جلال الشعر وعظيم قدره وخطره في بيئة كان فيها لـهذا الفن من القول سلطة التوجيه وقوة التأثير تفوقان أحيانا قوة السلاح.

ويقول ابن رشيق :« فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب وأوفر حظوظ الادب وأحرى أن تقبل شهادته وتتمثل ارادته لقول الرسول (ص) :

«إن من الشعر لحكما » ، وبلغ اهتمام العرب به في جاهليتها أنها كانت تحتفي بالشاعر اذا نبغ في قبيلتها ، فكانت القبائل الأخرى تأتي لتهنئتها ، « وكانوا لايهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج» (5). فهذه

---

(1) طبقات فحول الشعراء 24/1 .

(2) العمدة 30/1 .

(3) طبقات فحول الشعراء 24/1 .

(4) الشعر والشعراء 11/1 .

(5) العمدة 16/1 ـ 65 .

(1) الارقام الهندية تحيل على الهوامش في آخر البحث

الأقوال كلها ، وغيرها كثير جدا تجمع على أهمية الشعر في ذلك العصر، باعتباره فعالية فكرية واجتماعية ومتعة جمالية ، وتؤكد أنه جامع علوم العرب وديوان معارفها ورصيد تراثها ، لذلك اهتمت به العرب ،وكرمت الشاعر واحتفلت به احتفالا بالغا لان منزلة الشاعر كانت تفوق عندهم في بعض الأحيان منزلة الخطيب (6).

ومن الدلائل الأخرى التي تؤكد قيمته وأهميته فضلا عن وجوده الاشارات الوارادة عنه في القرآن الكريم، فقد شهد الكتاب بوجود شعراء في بلاد العرب قبل ظهور الاسلام وتضمن سورة واحدة سميت باسمهم ومجموعة آيات عرضت لموضوع الشعر والشعراء و للرسول فيه آراء وأقوال كثيرة ،وكل هذا ذو دلالة على أهمية الشعر وقيمته قبل الاسلام وفي عصر النبوة، كما سنبين بتفصيل.

ولا أرى هناك من جدوى ـ بعد الذي قيل ـ من الوقوف على مصطلح الجاهلية لتحليله ، ودراسة الفعالية الشعرية في ذلك العهد ، فتلك مهمة ومسؤولية نهضت بهما بحوث ومؤلفات كثيرة وقيمة كتبها عرب ومستشرقون منهم طه حسين البهبيتي، ناصر الدين الأسد ، يحيى الجبوري ، عبد الرحمن خليل ابراهيم، كارلو نالينو ،مارجوليوت غرنباوم، شوقي ضيف ، أحمد الشائب الخ...

2 ـ وقد يكون في تناول النقيض ، أعني الاسلام، ما يضيء مفهوم الجاهلية ، فالاسلام كان منذ ظهوره رؤية فكرية جديدة تحمل دعوة دينية واجتماعية وسياسية قوامها الايمان بوحدانية الاله والامتثال لاوامره، واجتناب نواهيه جاءت لتنظم المجتمع على أسس جديدة وتضبط علاقة الانسان بخالقه وأخيه الانسان في مختلف ميادين الحياة وعلى جميع المستويات.

فمن الناحية الاجتماعية نهضت الدعوة على أساس ترسيخ وحدة الجماعة وتأصيل قيم التآلف والتعايش عوضا عن وحدة الجنس والقبيلة ، لذلك انكر الاسلام على الجاهلية العربية عصبيتها الهوجاء ونظرتها العرقية الضيقة واتخذ من التقوى والايمان بقيم الدين الجديد مقاييس للمفاضلة بين الناس (7) وكان من نتائج هذه المبادئ التي أقرها الاسلام وجهد المسلمون الاوائل في تطبيقها ان تضاءل الاعتبار

---

(6) نفسه 82/1 .

(7) في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر هذه المقاييس لعل الاية 13 من سورة الحجرات أحسن مثال يوضح بدقة وايجاز فلسفة الاسلام في بناء الجماعة .

وراجع العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد سهير 23 .

القبلي وتعاظم الاعتبار الجماعي والمثل الانسانية العامة القائمة على وحدة العقيدة والجماعة، وكان من الطبيعي ان ينشأ عن ظهور الاسلام انقلاب جذري وشامل في الحياة الجاهلية بمختلف مظاهرها وأن يقوم وضع جديد تبدى أثره المباشر في شعر المرحلة التي استظلت بحياة الرسول وشخصيات خلفائه وصحابته ، وهي باجماع المؤرخين والعلماء، المرحلة المثالية في حياة الاسلامن حيث التنظيم والتسيير وتطبيق مباديء الدين واحقاق حقوقه ، وهي لذلك مرحلة نموذجية لدراسةموقف الاسلام من الشعر ،اذ انها تشمل فترة نزول الوحي وتواتر أحاديث الرسول ، وفيها تمثلت مواقف الخلفاء والصحابة، وظهرت آثارهم وآراؤهم في الشعر والشعراء، وهذه هي المصادر الأولى التي يجب الاعتماد عليهالفهم وتحديد النظرة الاسلامية الى الشعر.

II ـ موقف الاسلام من الشعر والشعراء(1) موقف القرآن :

نتبين من استعراض الآيات التي اهتمت بالموضوع موقفين اثنين : الاول يتعلق بالشعراء والثاني بالشعر والآيات التي عرضت للشاعر والشعراء هي الغالبة ويمثلها قوله تعالى :

1 ـ « بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعرفليأتنا بآية كما أرسل الاولون » (8) وقوله تعالى في سورة الشعراء المشهورة :

2 ـ « والشعراء يتبعهم الغاوون / ألم ترأنهم في كل واد يهيمون/ وأنهم يقولون مالا يفعلون / إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » (9) .

3 ـ وقوله تعالى في سورة أخرى :« ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (10) .

---

(8) الانبياء : 5 .
(9) الشعراء : 224 ـ 225 ـ 226 ـ 227 .
(10) الصافات : 36 .

4 ـ وقوله تعالى : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (11) ثم

5 ـ قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون/ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (12).

أما الآية التي ذكرت الشعر فهي قوله تعالى في سورة يس :

ـ « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرو قرآن مبين » (13) هذه الآيات كلها مكية (باستثناء الايات الاربع الاخيرة من سورة الشعراء) بعضها ذكر فيه الشاعر على لسان كفار قريش الذين صدوا عنالاسلام وكفروا بالرسول (ص) ووصفوه بالشاعرية : الايات : الاولى ـ الثالثة والرابعة.وبعضها الآخر ورد فيها كلمة شاعر إما تسفيها للشعراء ونعتهم بالغواية والغلو : الاية : الثانية، واما لنفي الشاعرية عن القرآن الكريم : الاية الخامسة.أما الاية السادسة فاهتمت بالشعر خاصة من زاوية نفي الشاعرية عن الرسول عليه السلام.

وهناك آيات أخرى تؤكد بوضوح أن القرآن الكريم ليس بشعر وانما هو وحي من الله نزل به الروح الامين على قلب الرسول بلسان عربي مبين (14). والمفهوم الظاهر من مضمون هذه الايات انها نزلت في سياقتاريخي خاص احتد فيه الصراع بين المسلمين والمشركين في بداية البعثة المحمدية ، دفاعا عن الاسلام والمسلمين ودرءا لادعاءات كفار قريش وافتراءاتهم . وقد تدفعنا هذه الآيات التي تكرر فيها لفظ شاعر مرة على سبيل التقرير ومرات على سبيل الحكاية الى التساؤل عن مفهوم هذه اللفظة في هذا السياق.

في الآية الأولى جاءت كلمة شاعر بعد عبارة « أضغاث أحلام » وفعل (افترى) وحرف الاضراب (بل) ، وقد تكرر هذا الحرف ثلاث مرات في هذه الآية لابطال ـ على لسان قريش ـ ما جاء في الآية السابقة (15) وفي الآية الثانية وردت اللفظة بصيغة الجمع بعد ثلاث آيات هي قوله تعالي :« هل انبئكم على من

---

(11) الطور 30 .
(12) الحاقة 41 . 42 .
(13) يس 69 .
(14) الشعراء ـ 192 ـ 193 ـ 194 ـ 195 .
(15) الانبياء 4 .

تنزل الشياطين / تنزل على كل افاك اثيم / يلقون السمع وأكثرهم كاذبون / والشعراء ...» (16) وفي الاية الثالثة اتت اللفظة مقرونة بكلمة مجنون .

والظاهر من السياق ان كلمة شاعر هي أحد النعوت التي كان خصوم الرسول يطلقونها عليه ، وأنها مرادفة لقول الكفار مجنون وساحر وكاهن (17) وذلك لا الناس كانوا يعتقدون ان للشاعر الجاهلي شيطانا او رئيا من الجن يلهمه ،وأحيانا كان يدفعه بغضاضة الى الانشاد (18) .

ومن المعاني التي تساعد على فهم لفظة شاعر : الافتراء والجنون والسحر بدليل ان الاية الثانية ـ حسب الترتيب هنا ـ مهد لها باستفهام عن أولئك الذين تنزل عليهم الشياطين ، من افاكين آثمين.والربط بين لفظتي الشياطين والشعراء في سياق واحد يؤكد ان الشياطين تنزل على الشعراء لتنقل اليهم أخبارا مختلقة في معظمها « ويبدو أن هذا يشير الى ما يعزى الى الشياطين فعله في موطن آخر (19) وهو استراقهم السمع في حلقات الذكر السماوية فعوقبوا على هذا الاثم بقدفهم بالشهب (20) .

من البين اذن أن الآيات المذكورة تصف فئة خاصة من الشعراء وصمهم القرآن باحتراف الكذب والغلو في الادعاء وتزييف القول وهم فئة الشعراء التي كانت تزعم انها على اتصال بالجن والشياطين تتلقى منها الالهام وتستوحي منها الافكار والاراء ومعروف ان بعض الشعراء في الجاهلية اعتقدوا في هذه القوى الخفية وأطلقوا عليها تسميات كثيرة واستمرت هذه الاسطورة حية في أذهان شعراء اسلاميين رددوا أسماء الشاطين على سبيل الاستملاح والتظرف (21).أما قوله تعالى « ألم ترأنهم في كل واد يهيمون » ... فيمكن ان يفسر تفسيرا مجازيا ، بمعنى ان الشعراء يطلقون لاخيلتهم العنان لتخوض في كل الموضوعات من غير تمييز، وقد يقصد به كذلك

---

(16) الشعراء 221 ـ 222 ـ 223

(17) أصول الشعر العربي لمرجليوث 11

(18) دراسات في الادب العربي ـ غرنباوم 44 ـ 137

(19) الصافات : 6 الى 10 .

(20) أصول الشعر العربي 11 .

(21) نفسه : راجع تعليق المترجم رقم 11 ـ وغرنباوم : 44 ـ 137 .

التشبيب الفاحش بالنساء الذي تثبته مقدمات القصيدة الجاهلية حيث يبدو فيها الشاعر وهو يمارس ما يصف (22) ، وكان من الطبيعي بعد تحديد طائفة الشعراء موضوع الهجوم ان يقع النص على الفئة الثانية التي خصت بالاستثناء وهم شعراء المسلمين مثل حسان وكعب بن مالك وابن رواحة.

أما الاية الاخيرة « وما علمناه الشعر ...» فنزلت لتضع حدا فاصلا بين الشعر ـ بمعناه السيء ـ وبين النبوة التي امر الرسول بتبليغها. في الايات : الاولى والثالثة والرابعة ذكر القرآن كلمة شاعر حكاية عن كفار قريش الذين اصروا على محاجة الرسول ونكران رسالته بدعوى ان الوحي ـ في زعمهم ـ ليس كلام الله وانما هو كلام شاعر ، وفي الاية الخامسة بقرر القرآن حقيقة الوحي الذي انزل على الرسول على اساس من نفي المفهوم الذي ارادمشركو مكة ان يثبتوه مؤكدا أنه ليس قول شاعر ولا قول كاهن، فمدار المناقشة في هذه الايات هو نقطة واحدة محددة وواضحة اثارت كل هذا الجدل بين الطرفين حين ادعى المشركون، لدى سماعهم القرآن انه شعر وأن النبي شاعر فنزلت هذه الآيات لتفنيد ادعائهم وبيان حقيقة أمره.

وليس في تدبر هذه النصوص ما يثبت ان القرآن وقف من الشعر والشعراء موقفا سلبيا أو معاديا ، لان مدار الحوار هنا هو مفهوم الشعر عند العرب المشركين وموقفهم من القرآن ، وليس موقف القرآن من الشعر والشعراء كما حسب بعض الباحثين ، لذلك فالاحتجاج بهذه الآيات يعتبر غير ذي موضوع ، وباطلا لان حكمة مشروعيتها تتمثل في دحض آراء المشركين ونفي الشاعرية عن القرآن والرسول على السواء لا في هذا الموقف أو ذاك من الشعر والشعراء، وهذا الرأي يصدق ايضا على آيات سورة الشعراء، فهي اولا تخاطب فئة معينة من الشعراء (شعراء المشركين مثل ابي سفيان وضرار بن الخطاب وابن الزبعرى ..) وهي ثانيا لا تشير بأذى اليهم ولا تطعن في الشعر مطلقا ، وانما تبين حقيقة هؤلاء الشعراء الذين يهيمون في كل واد ويقولون مالا يفعلون.وفضلا عن ان صريح الاية يحدد فئة الشعراء المرفوضين ، فان مواقف الرسول (ص) اثبتت بما لايدع مجالا للشك ان الاسلام لم يشجب الشعر

---

(22) نفسه 12 .

باعتباره فنا وفعالية فكرية وجمالية، بل رد منه ما كان يحرض على الرذائل ويشجع على الغواية ويدافع عن الشرك وموبقات الجاهلية.ويعتبر الاحتجاج بالاية الاخرى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ..) داحضا هو الاخر ، وليس فيه غناء ، اذ ليس في النص القرآني ما يشير الى ان الكتاب يمنع الشعر أو يرفضه ، ومحمول الآية يتجه الى التأكيد على ان الرسول ليس شاعرا وان القرآن ليس شعرا والمقصود من توكيد حقيقة التنزيه في هذه الاية وفي آيات غيرها امعان القرآن في تحدي العرب عن طريق اعجازهم، وقد تحقق الاعجاز بكيفية تدريجية حين تحدى القران العرب في ثلاث ايات مكية وفي آية مدنية ، بعشر سور أولا :

« أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (23) ثم بسورة واحدة « ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوامن استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (24) ثم في قوله تعالى :

«وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين» (25)

وقد جاءت آية أخرى لتوغل في التحدي والاعجاز وتؤكد أن مجاراة القرآن أمر ليس في طوق العرب. والناس عامة: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (26) .

ان موضوع الاعجاز لايتصل مباشرة بما نحن بصدده، الا انه لابأس من توضيح مضمون الآية التي لايمكن أن تتخذ حجة على أن للقرآن موقفا مناوئا للشعر ، فالتأكيد على أن القرآن ليس بشعر، وعلى أن الرسول (ص) غير شاعر ينبغي أن يفهم في سياق الصراع الضاري بين المسلمين وكفار قريش في مرحلة بلغ فيها العداء بين الفريقين أوجه، حين كفر المشركون برسالة الاسلام واتهموا النبي بالشعر

(23) هود 13 .
(24) يونس 38 .
(25) البقرة 23 .
(26) الاسراء 88 .

ووصموه، بالجنون والسحروغير ذلك من الاوصاف فنزلت الايات المذكورة تتحداهم وتعمن في اعجازهم . وليس للاعجاز معنى اذا لم يكن في شيء يدعي الخصم معرفته واتقانه، لذلك فالنبي ـ كما يقول ابن رشيق ـ انما بعث رسولا أميا غير شاعر الى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة آية للنبوة وحجة على الخلق واعجازا للمتعاطين ، وجعل القرآن منثورا ليكون أظهر برهانا لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادرا على مايحبه من كلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره فاعجزهم، واعجازه الشعراء أشد برهانا، لان العرب انما نسبوا النبي (ص) الى الشعر، لما غلبوا وتبين عجزهم فقالوا هو شاعر لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته (27). وللعلماء في هذا التنزيه المزدوج الذي ألح عليه القرآن تعليلات كثيرة نذكر منها تلك التي أوردها ابن فارس ومنها تعليل طريف، وهي:

ـ حكم القرآن في حق الشعراء (الاية..).

ـ العلم بأن للشعر شرائط لايسمى الانسان بغيرها شاعرا . وذاك لو أن انسانا عمل كلاما مستقيما موزونا يتحرى فيه الصدق ومن غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين أو يأتي فيه بأشياء لايمكن كونها بتة لما سماه الناس ، شاعرا، ولكان مايقوله مسخولا ساقطا . وقد قال بعض العقلاء، حين سئل عن الشعر، :ان هزل أضحك وان جد كذب.

فالشاعر بين كذب واضحاك، وان كان كذلك،فقد نزه الله ـ جل ثناؤه، نبيه (ص) عن هاتين الخصلتين وعن كل امر دنيء

ـ اجماع أهل العروض على أنه لافرق بين صناعة العروض وصناعة الايقاع الا آن صناعة الايقاع تقسيم الزمان بالنغم وصناعة العروض تقسيم الزمان بالحروف المسموعة. فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الايقاع، والايقاع ضرب من الملاهي لم يصلح ذلك لرسول الله (ص) وقد أثر عنه قوله (ص) :

«مأأنا من دد ولا دد مني » (28)

(27) العمدة 21/1 . وانظر كذلك رأي المرزوقي في الموضوع: مقدمة شرح ديوان الحماسة ص 17
(28) الصاحبي 274 ـ وانظر كذلك : المزهر 291/2 ـ الحديث في الصحاح 225/1 .

ـ ومنها تعليلات بعض من ألف في اعجاز القرآن. ومؤداها أن الرسول (ص) تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن فعجزوا عن ذلك وانقطعوا دونه، وظل يواجههم طوال عشرين سنة مظهرا لهم النكيرزاريا على أديانهم مسفها آراءهم وأحلامهم حتى نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت فيه النفوس وأريقت المهج وقطعت الارحام وذهبت الاموال. ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الامور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول الى الحزن الوعر من الفعل.. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الاحلام ووقارة العقول والالباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المعلقون. وقد وصفهم الله في كتابه بالجدل واللدد فقال: «.. وماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون» (29) وقال فيهم كذلك : «وتنذر به قوما لدا» (30). وقد كان وقع هذا التحدي كبيرا في نفوس الكفار. وهناك أمثلة كثيرة تصور ذهولهم هلعهم وتخطبهم لدى سماعهم القرآن منها قصة الوليد بن المغيرة المخزومي التي أشار اليها القرآن (31) وجماع القول فيها أنه لما بدأت الدعوة الاسلامية في الانتشار بين سكان مكة، جاء الوليد بن المغيرة قريشا فقال : إن الناس يجتمعون غدا بالموسم ، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس، فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يختنق، فقال يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحا عادلا فيكذبونكم- قالوا: نقول هو شاعر. قال: هم العرب، وقد رووا الشعر، وفيهم الشعراء، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم ! قالوا نقول هو كاهن. قال : انهم لقوا الكهان، فاذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم، ثم انصرف الى منزله فقالوا : صبأ الوليد (أي أسلم) ، ولئن صبأ لايبقى أحد الا صبأ . فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام : أنا أكفيكموه، فأتاه محزونا فقال: مالك يابن أخ؟ قال أبو جهل، هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك، تستعين بها على كبرك وحاجتك، قال: أو لست أكثر قريش مالا؟ قال: بلى، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه. قال : والله مايشبعون من طعام فكيف

(29) الزخرف : 58 .
(30) مريم : 97. وانظر كذلك : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن 21. 22.
(31) المدثر : 14 ومابعدها .

يكون لهم فضل؟ ! ثم أتى ابن المغيرة قريشا فقال: أتزعمون أني صبأت، ولعمري ماصبأت. انكم قلتم: محمد مجنون ولقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولايوما فهل رأيتموه يختنق قط؟ فكيف يكون مجنونا ولم يختنق قط؟ وقلتم شاعر وأنتم شعراء، فهل أحد منكم يقول مايقول؟ وقلتم كاهن، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد الا أن يقول : ان شاء الله ! قالوا كيف تقول ياابن المغيرة؟ قال أقول هو ساحر .

فقالوا : وأي شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه أ ليس تعلمون أن محمدا فرق بين فلان وفلانة زوجته، وبين فلان وابنه فلان وأخيه وبين فلان ومواليه فلا ينفعهم ولايلتفت اليهم ولا يأتيهم؟ قالوا بلى . فاجتمع رأيهم على ان يقولوا إنه ساحر وان يردوا الناس عنه بهذا القول وانصرف المغيرة فمر بأصحاب النبي (ص) وهم جلوس بالمسجد ، فقالوا : هل لك يا ابن المغيرة الى خير ؟ فرجع اليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال ما يقول صاحبكم الا سحرا وما هو الا قول البشر يرويه عن غيره وعبس في وجوههم وبسر (32) وفي موضوع السحر نزلت عدة آيات منها قوله تعالى في سورة البقرة :« واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه» ..الاية 102، كما نزلت ايات أخرى في سورة المدثر تشير الى قصة الوليد بن المغيرة وتصور ارتباكه وتخبطه ابدع تصوير منها قوله تعالى :« انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر ...».

ومنها ما جاء في حديث ابي ذر في سبب اسلامه، روي عنه قال: قال لي أخي انيس : ان لي حاجة الى مكة فانطلق فراث، فقلت : ما حسبك ؟ قال: لقيت رجلا

(32) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : 123/122/28. وذكر قصة الوليد بن المغيرة كذلك أبو الحسن النيسابوري في : أسباب النزول 295 .
كما وردت في السيرة النبوية القسم الاول 270 ـ 271

يقول ان الله تعالى أرسله فقلت : فما يقول الناس ؟ قال: يقولون شاعر ساحر كاهن قال ابو ذر ، وكان انيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ،والله انه لصادق وانهم لكاذبون .(33) ومن هذه الامثلة كذلك ما روي عن الوليد بن عقبة :أتى هذا الرجل النبي (ص) فقال: اقرأ، فقرأ عليه:

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربي ..» الاية (34) فقال أعد فأعاد فقال : والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اسفله لمعرف وان أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر (35)

وما أكثر الايات الاخرى التي نزلت في مناسبات مختلفة لتدحض أراجيف المشركين وغيرهم من خصوم الرسول والاسلام مثل يهود المدينة وعلى رأسهم كعب بن الاشرف وبعض شعراء النصارى وكلها تفيد أن المسلمين بقيادة الرسول كانوا يواجهون أعداء ذوي نحل وأجناس مختلفة في معركة متنوعة الاطراف والادوات سخر فيها السلاح البشري والحربي كما استعمل فيها سلاح القول من شعر وخطابة ولذلك فالمعركة لم تكن تدور حول الشعر ومن أجله ، ولم يكن الشعر موضوعها الرئيس وانما كانت معركة حول القرآن وبسببه ، والقرآن هو الذي اعجز شعراء الكفار وأسكتهم ثم اقتدى به الشعر الذي ارتبط بالدعوة الاسلامية وبدأ يصاول المشركين والوقائع تثبت ان الرسول كان يتورع عن اللجوء الى الشعر لاعتقاده أن القرآن وحده يكفيه شر خصومه وعندما تضطره عرب الجاهلية الى تسخيره ، كان يعتذر ويبين لهم ان واجبه نشر الرسالة لاقول الشعر والتباهي به ، يؤكد هذا الخبر الذي يروى عن وفد بني تميم. جاء هذا الوفد وكان يضم الزبرقان بن بدر ، يفاخر الرسول بالشعر فقال رئيسه ان مدحنا زين وان ذمناشين، فقال الرسول:انما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين ، فرد الوفد: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال الرسول ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت،ولكن هاتوا ... (أسباب النزول 259).

---

(33) ثلاث رسائل... 125 ـ راث : أبطأ. أقراء الشعر : قوافيه .

(34) النحل 90 .

(35) ثلاث رسائل 125 . ورواها صاحب أسباب النزول رواية أخرى ونسبها الى الوليد بن المغيرة ص 295 ـ 296 .

فالمعركة ليست معركة ضد الشعر بل ضد نوع معين من الشعر سخره خصوم الاسلام في عهد النبوة لايذاء الرسول والمسلمين ، وقد كانت في حقيقتها معركة حضارية عامة تجاوزت الشعر والشعراء وان بقي هذا وهؤلاء ـ لسنوات معدودة ـ أحد اسلحتها الكبرى.

وفي هذا الموقف الحضاري العام ما يفسر اهتمام القرآن بالشعر والشعراء واستخفافه بهما في آن واحد.

2 ـ موقف الرسول (ص) من الشعر والشعراء :

المعروف تاريخيا أن الدعوة الاسلامية مرت بمرحلة سرية استغرقت ثلاث سنوات اتخذ فيها الرسول (ص) من دار الارقم بن الارقم مكانا للتجمع والاتصال بأصحابه ومريديه، ولم تبلغ المواجهة في هذه المرحلة بين المسلمين والمشركين حد الحجاج العقلي والصراع الفكري ، ولم يظهر فيها شعر ديني سياسي وانما كانت هناك فئة من الشعراء المتألهين الموحدين الذين ارهصوا بالاسلام ومهدوا لدعوته مثل أمية بن ابي الصلت وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو (٢).

ثم انتقلت الدعوة الى طور الجهر فبدأت قريش تواجه الرسول (ص) وتحاول ثنيه عن رسالته فكانت مفاوضات ومساومات مع ابي طالب الذي اغرته قريش بأجمل فتيانها (عمارة بن الوليد) ليتخذه ولدا مكان محمد .ولما رفض عم الرسول كل هذه الاساليب واستمات في نصرة ابن اخيه وخيب آمال قريش فيه عمد مشركو مكة الى ايذاء الرسول وأصحابه فنزل الوحي يرد عليهم ويطمئن الرسول (٣) وتصدى لهم ابو طالب بشعر يدفع فيه غائلتهم ويؤازر النبي ، ولما اخفقت مساومة الوليد بن المغيرة للرسول بالمال والملك شرعت قريش في تحدي الرسول مطالبة اظهار البرهان على ما يقول والاتيان بالمجزات وذلك من أجل احراجه ، فرد القرآن على تساؤلاتهم (٤) ولما انتقلت قريش الى أسلوب جديد في محاربة الاسلام يقوم على مقاطعة النبي وأصحابه والتضييق عليهم (استمرت ثلاث سنوات) اضطر عليه السلام الى الهجرة الى الطائف ثم الى المدينة، وكان من دوافع هذه الهجرة فضلا عن ايذاء قريش